تقديم
نسـمة وفـاء

حَبِيبَتِي بِلادِي
نَسِيتِ فِي مَوَائِدِ الثَّنَاء
سَيِّدًا تَعَشَّقَ الفِدَاءْ
الْمُوتُ عِنْدَهُ حَيَاة
أَحَبَّ دَائِمًا أَنْ تُرْفَعَ الْجِبَاهْ
وَكِفَّةُ الكَلامِ عِنْدَهُ
نِصْفُ كِفَّةِ العَمَلْ
أَحَبَّ أَنْ يَرَاكِ مَسْجِدًا مُقَدَّسًا ثَرَاهْ
لا يُنَالُ تُرْبُهُ
نَسِيتِهِ مُقَيَّدًا
شُغِلْتِ عَنْهُ بِالْبَرِيقْ
مَنْ سَيُطْفِئُ الْحَرِيقَ غَيْرُهُ؟
وَمَنْ سَيَمْسَحُ الْجِرَاحَ إِنْ جَهِلْتِ سِرَّهُ؟

كنت أقرأ هذه الأبيات من قصيدة **حبيبتي بلادي** للشيخ **إبراهيم عزت** فاستشعر أنني كاتبها، وأقصد بها، حقًّا لقد نسيت بلادنا الكثير والكثير من العظماء، الذين سجلوا على صفحات التاريخ، لا أقول حروفاً؛ بل سبلاً ومسالك يستهدي بها من سيأتي بعدهم..

وأعجب عندما أجد الشعراء يُذْكَرون ولا يُذْكر فيهم **إبراهيم عزت!**

والخطباء يُذكَرون ولا يذكر فيهم **إبراهيم عزت!**

والمربِّين يُذكَرون ولا يذكر فيهم **إبراهيم عزت!!**

والدعاة يُذكَرون ولا يذكر فيهم **إبراهيم!!**

وعزائي الوحيد أنه كان يحب ذلك؛ ومن أجل هذا أحببناه..

أحببناه لبساطته، وزهده، لرقته ولطفه، للينه ووعيه، لفقهه وفهمه..

***

هل تَذْكُر صاحبي تلك الساعات الجميلة التي كنا نقضيها يوم الخميس وليلة الجمعة، بين يدي الشيخ، في مسجد أنس بن مالك يحدثنا طويلاً ؟

هل تذكر شرحه لسورة الرحمن: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٠﴾ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦١﴾﴾؟

هل تذكر يوم الجمعة وقد امتلأ المسجد من ليلتها، وصوت الشيخ إمام يحث المصلين المتوافدين - قبل رفع الأذان وصعود الشيخ المنبر- على الصعود إلى تلك المباني التي بنيت حول المسجد؛ لاستيعاب أعدادهم المتزايدة، ويقول: [مسجد فوق المسجد]؟

هل تذكر تلك العشرات من آلات التسجيل التي كان الناس يحملونها ويضبطونها؛ لتسجل للشيخ **إبراهيم عزت** خطبته، حرصًا منهم واهتمامًا؟

هل تذكر الشيخ عندما كان يصعد المنبر، يحمل عصاه، وقد التف بشاله الأصفر الزاهي، وبياض جلبابه وعمامته يبدوان من تحتها، فيلف الصمت الجمع المهيب، وتتجول عينا الشيخ إلى الحضور للحظة، ثم ينطلق صوته المملوء حناناً وشوقاً؟!

«الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، سيدنا ومولانا محمد ﷺ، وعلى آله وصحابته أجمعين.

﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾﴾[البقرة] .

﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾ .

[الأنعام]

وأشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله.. بلغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة، وكشف الله به الغمة، وجاهد في سبيل دينه، حتى أتاه اليقين.

فاللهم اجزه عنا وعن والدينا، وعن الإسلام والمسلمين، خير ما جزيت به نبيًّا عن أمته، ورسولاً عن قومه.

اللهم أحينا على سنته، وتوفنا على ملته، وأوردنا حوضه، واسقنا من يده الشريفة شربة هنيئة، لا نظمأ بعدها أبدًا.

واجمع بيننا وبينه؛ كما آمنا به ولم نره، ولا تفرق بيننا وبينه، حتى تدخلنا مدخله».

هل تذكر يا صاحبي ذلك كله.. وقد تهيأت القلوب للسماع، وتوهجت الأنفس شوقًا، فإذا به ينطلق مفسرًا لآيات من القرآن الكريم، في حديث يأخذ بالألباب؟

أتذكر يا صاحبي يوم انفعل أحد الحاضرين، والشيخ يبدأ مقدمته، فإذا بالرجل عندما وصل الشيخ إلى « وأشهد أن محمداً عبده ورسوله » يصرخ في هستيريا: « صلى الله عليه.. صلى الله عليه » ويكررها في عصبية شديدة؟! فيسكت الشيخ تمامًا حتى هدأ الرجل وانخفض صوته، ثم عاد صوت الشيخ من جديد - في هدوء - يعلو تدريجيًّا:

﴿ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الرعد].

«سمع رسول الله ﷺ قومًا يذكرون الله بصوت عالٍ، فقال: « **أيها الناس: أربعوا على أنفسكم؛ فإنكم لا تدعون أصمًا، ولا غائبًا؛ وإنما تدعون سميعًا مجيبًا** ».

وعند هذه الكلمة كان صوته قد وصل إلى نفس المستوى الذي سكت عنده. فعاد إلى آخر كلمة سكت عندها: [**وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله**] وأكمل الخطبة كأن شيئًا لم يكن [1].

(1) كان هذا في خطبة (سورة الشمس).

أتذكر يا صاحبي يوم انقطعت الكهرباء - والمكبِّر معها - وهو يلقي **بيانًا**[1] بعد العشاء، وقد تعلقت الأسماع والقلوب بشفتيه، فإذا بصوته يعلو ليصل إلى آخر الموجودين في الحشد الكبير المجتمع في المسجد، ولكن ليس بكلام إنما بتلاوة آيات من القرآن:

أتذكر الآيات التي كان يقرؤها رحمه الله؟ إنها آيات سورة النور: ﴿ **اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ** ﴿٣٥﴾ ﴾.

[النور]

ألا تذكر معي يومها؟ لقد أضاء كلامه نورًا! فإن لم يصدق أحد أنه نور حقيقي أضاء المكان، فيكفي أن نقول: إن الآيات المنطلقة من القلب المليء صدقًا قد أضاءت كل كياننا.

أتذكر.. وتذكر.. وتذكر.....؟!

ثم مات إبراهيم عزت رحمه الله.

ولأمرٍ ما - أعجب من العجب - تعمَّد الكثيرون إخفاء ذكره؛ فلا شرائط له توزع وقد انتشر سوق الكاسيت! ولا كتب عنه تكتب وقد نضحت سوق الكتب بما لا يُقرأ! ومن لا يستشهد بكلماته التي كان يحفظها الكثيرون رغم كونها جليلة جميلة!

أين إبراهيم عزت الذي كان الآلاف يحضرون خطبته؟

أين هؤلاء الذين كانوا يسمعونه من عشرات الدول في الاجتماع الحافل يوم الخميس وليلة الجمعة، في مسجد أنس بن مالك؟

أين هؤلاء الذين كانوا يسعون لمرافقته في الجولات والخروج بالأيام والشهور، داخل مصر وخارجها؟!

---

(1) مصطلح من مصطلحات جماعة التبليغ ، يطلق على الكلمة التي تقال بعد الجولة على الناس، وتجميعهم في المسجد.